رحلة الحروف الصفر

للشاعر بلند الحيدري

منشورات دار الآداب ـ بيروت

عبر « رحلة » (١) بلند الحيدري الشعرية الجديدة نجد انفسنا أمام رؤيا جديدة متميزة للشاعر ، ويطل علينا وجه آخر كان يبدو باهتا ، مذعورا ، مترددا في رحلته الشعرية الطويلة قبل « رحلة الحروف الصفر » . هذا الوجه الذي يطل علينا شامخا ، عنيفا ، مقاتلا ، وأبيا هو وجه الشاعر الثوري ، الشاعر الواعي الملتزم لقضايا الانسان ، لمصيره ، لهمومه ، لانتصاراته وهزائمه وأشواقه . ان بلند الحيدري هنا يتخطى أوجهه القديمة : وجه الشاعر البودليري الذي عرفناه في مطلع حياته الشعرية في « خفقة الطين » ، ووجه الشاعر الرومانسي الذي كان يجوب في أعماقه ، ويفرض رؤياه في « أغاني المدينة الميتة » ، كما شحبت هنا صورة الشاعر العبثي السيزيفي بهمومه الذاتية والوجودية ، وراح احساس الشاعر بالغربة والانسحاق المهزوم الذي جسدته تجاربه الشعرية في « خطوات في الغربة » يكتسب نكهة جيدة تماما . فبدلا من التشاؤمية المرعوبة ، والاحساس بالهزيمة والعجز أمام جدار المستحيل ، اكتسب احساس الشاعر بالغربة نبرة التطلع والتفاؤل الثوري المفعم بمزيج من الغضب والتحدي والانفتاح على الانسان الثوري .

ان صوت الشاعر الثوري الذي يعلو هنا يكشف عن نضج فني وفكري متميز ، نستشفه عبر رؤيا الشاعر المتطلعة الواعية ، وعبر نبرة صفاء شفافة كانت تغرق في ضبابية القلق والتمزق والغربة ، واخيرا عبر تطور أدوات الشاعر التعبيرية والتكنيكية في بناء التجربة الشعرية .

ان ميلاد هذا الصوت الشعري الجديد ليس حدثا طارئا بل جاء عبر عملية تطور فنية وايديولوجية وحياتية مر بها الشاعر ، وجاء ديوانه الاخير ليعلن حقيقة تخطي الشاعر لاوجهه القديمة ، ووقوفه على مشارف مرحلة جديدة من تطوره الشعري . وتكتسب هذه الحقيقة أهمية متميزة لان بلند الحيدري اذ ينتقل نهائيا الى مواقع الثورة والمقاومة ، فانما يكون انتقاله بعد نضج فني وحياتي أصيل ، لذا جاء صوته صافيا وجاءت معالجاته بعيدة عن السقوط في الهتافية والشعارات والانفعال العاطفي السريع الذي يترك بصماته الواضحة على كتابات الكثير من الشعراء الثوريين الآخرين وذلك لانهم كانوا ثوريين قبل أن يمارسوا عملية الابداع الشعري ، لذا فعندما بدأوا حياتهم الشعرية كانوا يحملون معهم الكثير من الهموم والشعارات والانفعالات السياسية اليومية ، الصغيرة ، والكبيرة ، التي كانوا يطمحون الى أن يجعلوها جزءاً من رؤياهم للتجربة الانسانية والشعرية. بينما كان بلند الحيدري شاعراً أولا ، بدأ من مواقع الذاتية والرومانسية واكتملت ملامح شخصيته الشعرية بعيدا عن هموم العمل الثوري والسياسي ، ولذا جاء انتقاله التالي الى مواقع الالتزام والانتماء الايديولوجي والانساني أصيلا وناضجا . ومما يكسب انعطاف شاعرنا هنا أهمية بالغة هو جو الكفاح الثوري الذي يخوضه شعبنا العربي ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والذي يتطلب وعيا سياسيا وحضاريا عاليا من قبل الشاعر العربي المعاصر ومعايشة لمشكلاتنا الثورية والقومية والانسانية ، كما انه يعلو في وقت تسود فيه لدرجة محزنة ظاهرة الارتداد نحو الميتافيزيقيا ، والذاتية والسوداوية والانغلاق ، وتعلو أحكام تعلن عن نهاية وظيفة الشاعر الثوري الملتزم .

ان تجربة بلند الحيدري هنا تكشف ضرورة الشاعر السياسي المنتمي وعدم انتفاء دوره ، كما انها تكشف عن ان مظاهر الارتداد عن الواقعية ، عن الثورة ، عن المقاومة ، والانحدار نحو كهوف التفوقع الذاتي ، أو التمرد العدمي التي جاءت كنتاج لاحساس حاد بالهزيمة ، هذه المظاهر يمكن تخطيها ومنح شعرنا العربي صوت الثورة الذي لا يخبو بمعانقة أصيلة لتجربتنا الحياتية ، القومية والانسانية بكافة أبعادها .

فلذا يجب أن نتأنى كثيرا قبل أن ندرج اسم بلند الحيدري تحت أي قائمة أو جدول تقليدي اعتاد بعض النقاد على وضعه ، فهو الآن يرتاد أفقا جديدا ، وبصفاء نادر ، يجعل منه واحدا من شعراء المقاومة والثورة والتطلع في شعرنا الحديث .

فلم يعد بلند ، شاعر الجنس ، والكلمة الارستقراطية الانيقة ، الذي يلهث وراء الايقاع الموسيقي في « خفقة الطين » ، والذي قال عنه مارون عبود « انه أقرب الى أبو ريشة تعبيرا ولكنه أخو أبو شبكة في الطاحونة الحمراء . فالرحى سورية ، وأما الحنطة فعراقية » . والذي وقفت قصيدته الشامخة « سميراميس » الى جوار « سدوم » أبو شبكة ، ولكن بمعالجة جديدة للعقدة الاوديبية وبفنية ودرامية تذكرنا بقصيدة « ثامار وأمنون » لغارسيا لوركا .

وهو لم يعد « ذلك الشاعر الذي يكتسحه طوفان تشاؤمي » كما كان يرى وزموند ستيوارت . وأخيرا فهو لم يعد ذلك « الشاعر الرومانسي » الشاب الحساس « الذي ارتجفت مشاعره الصغيرة وأحلامه الطفولية الخضراء على جليد الواقع المتعفن القاسي ، يغار مع اليأس في رحلة قاسية ويعذبه صمت الليالي وضيق المكان ورتابة الزمن ، وتنتهي قصائده بندب جنائزي للحياة والوجود والمصير والقيم ، ويبشر بالنهاية : الفجيعة » (٢) .

وقد يقال ان صوت بلند في ديوانه هذا ليس جديدا ، باعتباره كان يتحرك ضمن رؤيا ملتزمة منذ « جئتم مع الفجر » الذي تبلور اثره ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . والواقع أن بلند لم يستطع خلال تجاربه الشعرية تلك تقديم نتاجات شعرية تتسم بالمعايشة الاصيلة الواعية للتجربة الثورية ، بل كان يبدو مبهورا مندهشا باندلاع الثورة المفاجيء له ، لذا فهو كمن استيقظ من حلم وراح يحدق بفرح في الانطلاق الثوري العارم ، فجاءت معالجاته « هامشية » منفعلة ، وتصل أحيانا لدرجة السذاجة ، وعدم ادراك طبيعة العوامل العميقة التي كان يحبل بها مجتمع ما قبل الثورة . ففي قصيدة « جئتم مع الفجر » يقول الشاعر :

« لكنكم جئتم
وكنا هنا
نسأل من أين ستأتي المنى
من أين ؟..
لن تأتي
لن تشرق الشمس » .

ثم يقول :

« فسجننا أعمى بلا كوة
ودربنا يوغل في الهوه
ونحن لا حول ولا قوه
لكنكم جئتم وكنا هنا » .

وبمثل هذا التفاوت الساذج كان يقدم لنا بلند الحيدري تجربته كشاعر سياسي ، وذلك لان وعيه بالثورة كفاعلية انسانية ، وبالالتزام

---

(١) « رحلة الحروف الصفر » ـ شعر ـ بلند الحيدري ـ دار الآداب ـ بيروت .

(٢) « دراسات في الشعر العربي الحديث » ـ أمطانيوس ميخائيل ـ ص ١١٤ ، ص ١١٦ .

الايديولوجي كرؤيا داخلية شخصية ، لم يكن قد « اختمر » في أعماقه ولا وعيه بتلقائية وعمق . وقد انتبه لهذه الحقيقة الناقد العراقي عبد الجبار عباس في دراسته عن « بلند الحيدري » في عدد « الآداب » الخاص عن الشعر ، اذ أشار الى أن التزام الشاعر آنذاك « لم يكن أكثر من موقف تعاطف وتأييد ومشاركة وجدانية دون أن تنحل هذه القضايا في نفسه وتذوب في كيانه متحولة بذلك الى تجربة شخصية لا بد من تفجرها في شعره » (١) .

الا ان المرحلة الجديدة التي يطل عليها بلند الحيدري تجعلنا نتطلع باطمئنان وثقة الى شاعرنا الذي استطاع أخيرا أن يعيش بعمق، بتلقائية ، التزامه الايديولوجي والثوري بعد أن « انحلت في نفسه وذابت في كيانه قضايا التزامه الفكري متحولة بذلك الى تجربة شخصية تفجرت فعلا في شعره » .

ومما ينبغي الانتباه له هو أن هذه المرحلة قد تكاملت بعد أن مر الشاعر بأزمة انسحاق واغتراب أحس فيها بالهزيمة والخيبة ، اثر تجربة ذاتية وسياسية معينة كادت أن تسلمه نهائيا الى متاهات التصوف والارتداد نحو الميتافيزيقيا والذاتية والسوداوية . وقد عبر عن ذلك عبد الجبار عباس في دراسته المذكورة اذ قال : « لقد كانت الرجات السياسية العنيفة التي مرت بها بلادي كفيلة بأن تعيد شاعرنا الى الانكفاء والاستسلام مرة أخرى الى ـ أغاني المدينة الميتة ـ وقد أوشك أن يفعل ذلك كما تشهد قصيدة ـ الرحلة الثامنة ـ » الا ان مخاوف الانكفاء هذه لا مبرر لها حاليا ، فلقد استطاع شاعرنا تخطي هذه الازمة نحو آفاق جديدة ورائعة ـ نحو شواطىء الانفتاح على الثورة والمقاومة والدفاع عن قضايا الحرية والانسان .

وان ديوان « رحلة الحروف الصفر » يأتي ليكون شهادة ميلاد هذا الصوت العميق في شعرنا الحديث ، وهو يبشر بمرحلة شعرية جديدة وخصبة في رحلة بلند الحيدري الشعرية ، تستلزم الرصد والدراسة المتأنية .

وختاما فآمل أن أستطيع معالجة هذه الظاهرة مرة أخرى وبشيء من التفصيل في عدد قادم .

بغداد — **فاضل ثامر**

---

(١) « بلند الحيدري » ـ بقلم : عبد الجبار عباس ـ مجلة « الآداب » ـ عدد الشعر الخاص ، ١٩٦٦ .

الكابوس

رواية لامين شنار

منشورات دار النهار ، بيروت

الكابوس .. اسم رواية الشاعر أمين شنار التي فازت مناصفة بجائزة الملحق الادبي لجريدة « النهار » عام ١٩٦٧ مع رواية تيسير سبول ـ أنت منذ اليوم ـ

و « الكابوس » رواية قصيرة تعتمد الرمز أساسا فنيا للتعبير.. لذلك فهي من الاعمال الرمزية التي عادة ما يختلف حولها التفسير والتأويل ، والتي لا يكاد يتكشف الرمز فيها عن معناه بعد القراءة الاولى للنص ، ومثل هذه الاعمال غالبا ما تجعل القارىء في حيرة وهو يحاول فهم الرواية ، وتلمس معانيها الحقيقية وراء كل شخصية ، وكل موقف ، وكل كلمة في العمل الادبي .. وأسارع فأقول ان رمزية « الكابوس » على الرغم مما قد يكتنف بعض جوانبها من غموض تحمل دلالات فكرية ووجدانية معينة تمتد على مساحة زمنية محددة الابعاد ، واضحة المعالم ، مما يساعد القارىء العادي ـ الى حد ما ـ على اكتشاف الجوانب الاساسية في هذا العمل الروائي القصير ..

نحن لسنا ضد أساليب الرمز والايحاء على اعتبار انها مصدر غنى وثراء لاي عمل أدبي سواء كان شعرا او قصة ، او مسرحا ، بشرط أن تكون هناك ضرورة فنية مقنعة تلجىء الكاتب الى استخدامها.. وبشرط ألا يتحول الرمز الى الاغراق في الغموض الذي يمكن القول بانه أصبح ظاهرة شائعة عند بعض الادباء .. ولعل أمين شنار وجد المبرر في ظاهرة الخطابة والتقرير التي تعيب أدب الجيل السابق من أدبائنا ، فاتجه الى استغلال الرمز الذي ربما كان أقدر على استيعاب تجربته الروائية وأكثر اتساقا مع طبيعة الشخصيات والمواقف والافكار التي أراد أن يجسدها في روايته هذه . والسؤال الآن : ماذا يريد الكاتب أن يقول لنا في « الكابوس » ؟ ثم الى أي حد استطاع أن يضع ما يريد قوله عبر الاطار الفني للرواية ؟

الكاتب أراد أن يقدم تقييما موضوعيا معينا من وجهة نظر معينة لعوامل نكسة الخامس من حزيران ، وهو لذلك يضع تجربة الهزيمة الكبرى على المشرحة ليحلل الاسباب والنتائج بأسلوب مواجهة فكرية لانفسنا وللعالم .. أقول مواجهة فكرية .. لان أمين شنار أراد أن ينطلق في روايته من مقولة أساسية وواضحة يمكن أن تتلخص في عبارة : من هو المسؤول عن النكسة ؟ وهي تمثل قضية لا تزال تشغل الذهن وتؤرق الوجدان .. والرواية تشير بطريقة أو بأخرى الى اننا جميعا مسؤولون عن الهزيمة ونقف في قفص الاتهام الى جانب المدانين الآخرين ، فلا تقل مسؤولية الجندي عن المثقف عن الرجل العادي ، والكاتب يفصل أفكاره عن قضية النكسة على شخصيات روايته بعد أن يلبس كل شخصية رداء الرمز الذي أعده لها .

يتوفى (نجم) شيخ القرية ليأتي شيخ آخر يحتل مكانه في ادارة شؤون القرية ، وهذا الشيخ الجديد لا أحد يعرف له أصلا أو فصلا ويزعم انه يمثل (نجم) صاحب الضريح الجليل تحت التينة الشرقية ، وتثور التساؤلات على شفاه الاطفال : من هو ساكن جبل البخور ، لماذا لا يخرج الينا ؟.. لماذا نحن فقراء وهو غني ويملك من الارض أكثر مما نملك .. وهو شخص واحد ونحن مئات ؟ وفي كل مرة يسد الكبار الافواه الصغيرة مخافة أن يسمع خفراء الشيخ الكبير الخمسة وينقلوا الكلام اليه ..!!

ان الكاتب يضعنا منذ البداية أمام صورة الاستغلال والسيطرة الاجتماعية التي تمسك بيدها مقاليد الامور في بعض مواضع الحياة العربية ، وهو يضع هذه الصورة أمام جبن أهل البلدة وعجزهم وافتقارهم الى العنف والايجابية في سبيل التغيير ، فعلى الرغم من ذلك هم يقدسون الشيخ الكبير الذي لا يظهر الا في أيام المواسم ممتطيا جواده المطهم فتكاد القرية تجن من شدة الهتاف والتصفيق . ويتسلل الى القرية الخواجا موسى بائع الاقمشة الذي يتعامل معه الشيخ الكبير ، ويتضايق أبو ناجي صاحب الدكان الوحيد ويرى فيه منافسا له في تجارته فيحرض الاطفال على الاعتداء عليه والسخرية منه ، والخواجا يصرخ مفصحا في صراخه عن نوايا الغدر المبيت : « ملعون أنت وأبوك .. سأذبحك وأذبح أباك » . ويقنع أبو ناجي أهالي القرية بأن الخواجا موسى يفسد أخلاق النساء .. ويشتم الجميع الخواجا في العلن ، وفي السر يعجبون به ، فهم منافقون جبناء على حد تعبير أبو درويش الرجل الكهل الوحيد الذي يعرف حقيقة الخواجا موسى وهدفه من دخول القرية ، فقد سمع الخواجا يقول للشيخ الكبير : « اذا انهدم الجبل بين قريتكم والعالم .. ودخل أولادي وأحفادي بيوتكم فسيكون لك المجد والسلطان جزاء عونك وتأييدك » . ولكن الناس لا يصدقون أبا درويش ويتهمونه بالجنون والخرف ، ويموت الرجل بعد أن يترك النبوءة لحفيده فرحات في مذكرات ، ولكن ماذا يفعل فرحات ؟ هل يحتج على الارهاب بمفرده ويدفع رأسه ثمنا لذلك ؟ أم يتملقه ويعلن خضوعه له ولامبالاته به .. ان نفس فرحات تمتلىء بآمال التغيير وهو يرغب في أن يكمل رسالة الجد وأن يتحقق من نبوءته .. « الخواجات ازدادوا

عددا كما ترى ، ولم يكتفوا ببيع القماش بل تسللوا الى شؤون القرية كلها » . بهذه الكلمات تضـــع الام ولدها فرحات أمام مسؤولياتـه ومصيره وتكون آخر كلماتها له : « لا تكن مثل أبيك ، واحترم ذكرى جدك » ... أبوه كان يحب الخواجات ويتعاون معهم ولكنهم تخلصوا منه في النهاية ... وهكذا يزيد الكاتب شخصية فرحات عمقا ويعطيها أبعادا معينة من خلال التفاصيل الجزئية في الرواية ، والوصول بهـا الى قمة الازمة عندما يكتشف فرحات العلاقات الانسانية الممزقة تحت وطأة العجز والسلبية والخوف ، فهو لا يكاد يجهر بأفكاره وآماله في التغيير أمام صديقيـــه احمد وهشام حتى يسلماه الى الخواجات الخفراء ليواجه الحبس في البئر الرهيبة التي مـــات فيها أبوه .. وسرعان ما يقع فرحات فريسة الارهاب والخوف ، فيرضى بأن يعمـــل خفيرا ، بهدف أن يكتشف ما يدور في بيت الشيخ الكبير .. ويلوك الناس سمعته « جاسوس .. ابن جاسوس » . الناس يكتفون بالتفرج على الآخرين ونقد تصرفاتهم وعيوبهم ، والاجدر أن ينظروا بعيون مقلوبة لكي يتعرفوا على التشويه المفجع والندوب العميقة بداخلهم . لذلك فهو يصف أهل البلدة بالجبن والنفاق ويضربهم ويشتمهم في المقهى ويحثهم على الشعور بالمشاركة والمسؤولية جهدا وعملا من أجل تحرير القرية . السؤال لم يعد متى (نبدأ) وانما (كيف) . فرحات يعرف كيف .. لا بتغيير أو اسقاط الشيخ الكبير وطرد الخواجات الغربـاء بل بتغيير الجوهر أولا .. بتغيير الانسان بالثورة لاجله او ضـــده اذا اقتضى الامر ..

ان شيخ الخفر يخبر فرحات بأن الشيخ الكبير قد مات ويطلـب اليه أن ينشر النبأ بين الناس وأن يوجه سخطهـــم ضد الخواجات ، ويغري الشاب بالمال والنساء والخمر ، ولكن فرحات يرفض كل هذا ويرفض أيضا أن يصدق خبر وفاة الشيخ الكبير ، وينخرط في بكاء مرير . وتأتي الحقيقة المدوخة على لسان شيخ الخفر : « هذا الذي كان هنا على جبل البخور شيخ آخر لا تعرفـــونه ولا يعرفكم . أنتم ترونه بوهمكم وهو لا يراكم أبدا .. متى تواجهون الحقيقة ؟ متـــى تستيقظون ؟ » . ويدرك فرحات المؤامرة المبيتة وراء كلام شيخ الخفر وهي بمثابة اعلان ساعة الصفر لابادة أهالي القرية . ان الكاتب يعمق شخصية الشيخ الكبير من خلال أحداث الرواية ويفصح عن معنـــى الرمز الذي ألبسه لهذه الشخصية خلال الحوار المتلازم الذي يـدور بين عصام وعلي وعوده ، زملاء فرحات . وأمين شنار يريد من هذا الحوار أن يطرح التناقضات الفكرية التي كانت قائمة بعد النكســة وهي تبرز في اتجاهين : الاول الدعوة الى الاخذ بالعلم والمعـاصرة .. والاتجاه الثاني : العودة الى التراث والدين .

مما قاله أمين شنار لمجلة « حوار » عن دور المثقف العربي بعـد الخامس من حزيران على اثر فوزه بالجائزة : « أزمة المثقف العربـي أزمتان : ذاتية وخارجية ، أما الذاتية فأهم أغراضها الغربة والسلبية، وأما الخارجية فأهم عناصرها الوصاية والاهمال » . انه ـ ولا شك ـ الانفصام الحاد بين العقـــل والوجدان ، ولعل هـذا ما ينعكس على شخصيات الرواية .. فالشخصيات متناقضة مع نفسها سواء فـــي تصرفاتها أو في آرائها .. وهي تشعر بالتمزق في مواجهة تحديات اكبر من امكانياتها وقدراتها .. علي يرفض الوصاية الجبرية التي يمارسها الشيخ الكبير على أهل البلدة ولا يجد ضرورة لاخذ رأيه في الثـورة ضد الخواجات » . الحقيقة ان الشيخ الكبير في حكم الميت .. حتى لو لم يمت » .. عوده يؤمن بأن الخلاص لا يكون الا عن طريق الشيخ الكبير وهو لذلك يستنكـر رأي علي : « لست منا .. لا نريدك اذا انكرت الشيخ الكبير » .. هذا في حين يتخذ عصام موقفا وسطـــا بين علي وعوده : « لا يا علي ، نجم لـــم يمت ولا الشيخ الكبير لكنـي شخصيا أشك بأن لهما دورا في معركتنا المقبلة » . اما فرحات فهـو يذهب الى أبعد من عوده في التعصب للشيخ الكبير : « هم ؟ أم نحن يا عوده .. هم أعداءه والمنتفعين بموته تريدهم أن يبثوا فيه القـوة ؟ أم نحن أبناءه الذين لا حياة لهم الا بوجوده علينا أن نكون معه والـى جانبـــه » .

ان عليا يمثل في الرواية صوت العقـــل الذي يخترق الحواجز والخرافات والاصنام ، ويحاول أن يقنعنا بانه يجب الانطلاق من نقطـة الوعي العميق بالذات وبالواقع ، وهو لذلك لا يكف عن التهكم عـــلى الشيخ الكبير بقسوة ويقول لفرحات معاتبا : « يا فرحات .. يؤسفني أن تكون منشغل الذهن بهذه الترهـــات ، ماذا ؟ أنسيت انك كنت معلما ؟ أتكـــون الخرافة زاد المعلم ؟ دع نجما والشيخ الكبير والتفت لمصلحتك » .

أما عن المعركة ضد الخواجات فان لعلي رايا : « أية معركـــة ؟ نحن واهمون اذا تصورنا ان باستطاعتنا ان نطرد الغرباء ، فهم اقوى منا وأكثر علما وتجربة » . وعلي يرى ترك المسالة للزمن ، أما عصـام فيؤمن بضرورة تنظـــيم اهالي القريـــة وتدريبهم في انتظار اللحظة الحاسمة . ان الخلاص هو التحدي الكبير الذي يواجههم جميعا ولكن الخلاص لا يبدأ من الخارج ، من الهواء بلا منطق ولا بداية ، وانمـــا من الداخل بحل تناقضاتنا الذاتية ازاء عوامـــل الغربة والسلبية والوصاية والاهمال ـ على حـــد رأي الكاتب ـ وبذلك فقط يتحقق انتماء الانسان العربي الى تراثه والى عصره في آن واحد ومستـــوى واحد .. وبنتفي ذلك الانفصام القائم بين عقله ووجدانه ، بين الكيان الروحي وكيان الامة ..

ان الاصدقاء في روايتنا هذه يحاول كل منهم أن يكتشف نفسـه ويأخذ دوره ويحدد طريقه ، ولكن من مواقع فكرية ونفسية وروحيـــة مختلفة .. وهو ما كان قائما في حركة حياتنا العربية قبل النكسة .. فلم تكن قد تحددت بعد ملامح الصورة التي تضم في اطارها المحافظـة على الاصالة الى جانب الحرص على المعاصرة .. لم تكن الامة العربية بقادرة على خوض معركة البناء الداخلي ، بناء عقل الانسان مع معركة الصمود والبقاء في نفس الميدان . كان لا بد أن يشمل التغيير كـــل ما هو اساسي وعميق الجذور كشرط للتحـــرر والحياة .. أن يمس المضمون ، لا أن يقف عند حدود الشكل ، كان لا بد أن نكسر الغلاف القشري الذي يحيط أفكارنا ومواقفنا وحياتنا كلها .. ان الكاتب يزيد شعورنا بثقل التبعة والمسؤولية التي تقع على عواتقنا جميعـــا تجاه هزيمتنا الكبرى ، ويدين الذات العربية المحتجبة وراء ستار الوهـــم والخداع والادعاء . فمقدمات الهزيمة كانت تكمن في حياتنا العربيـــة قبل الخامس من حزيران بسنوات .. هذه الحقيقة تصفعنا بعنف في حوار شيخ الخفر مع فرحات : « أثرهم ضـــدنا بكل قواك البلاغية ، حرضهم . خاطبهم بهذه العبارات الرنانة التي تزخر بها لغتكم ، فان تنادوا لحمل السلاح انتقاما لشيخهم الميت ولطردنا من حيث أتينا فان ذلك هو غاية المراد . مفهوم » . ويرد فرحات : « ـ لكننا يا سيدي فقراء أغبياء جبناء ، منافقون » . « ـ اعرف ، أعرف » . « ـ واكثـر من ذلك لم نعد نتقن الحرب الا اذا كانت بين حاملتين من حمائلنـا الكثيرة » . « ـ وماذا بعد ؟ » . « ـ اخاف لو دعوتهم الى القتـال أن يسخروا مني ثم يسلموني اليك ! » . « ـ بل سيرفعونك عـــلى الاكتاف ... الخ » .

من ذلك نرى ان رواية « الكابوس » تتسم بالرفض والنقد ولكن بعيدا عن الصراخ الحاد والعويل الذي اصطبغت به مئات القصـــائد والقصص والمسرحيات التي اندفعت الى التعبير والى ترجمة شحنـــة الالم بعد المحنة مباشرة .. ان مسؤولية ما حدث تقع علينا جميعـــا وبلا استثناء لاننا كنا نشيح بأوجهنا بعيدا عن رؤية ما هو قائم وعـن اكتشاف أبعاد الواقع الذي أدى الى النكسة .. ويبدع الكاتب فـــي الفصل العاشر والحادي عشر من الرواية فـي تجسيم الواقع المختلط والمشوه عن طريق استخدام الحلم والهذيان لكي يصور الشعور الساحق بعجز فرحات عن مواجهة الواقـــع .. ففرحات يلتقي ـ في الحلم ـ بالشيخ الكبير : « أنا ابنك .. أتيت ومعي الاهل والولد ، معي كـل بيت وكل زقاق .. معي كل همسة وكل جرح . أتيت اليك أنقـذك . أعود بك الى أحفادك .. الينا فماذا أفعل ؟ » . ويعده الشيخ بـــأن

يأتي الى مكان الاجتماع « ملتفا بعباءة القرون وبالذنب وبالتفكير ، اياك أن تبوح بالسر . اياك » . ونكتشف أن فرحات كان يحلم ويهذي في بيت دلدول فران القرية .. انه الذي يأتي ولا يأتي .. انتظار اللاشيء ، يعرب عن وعي الانسان بالغموض والعجز أمام قوى ما وراء الطبيعة ذات الاسماء المختلفة كالصدفة والقدر والمجهول.. هكذا يختلط الحلم بالواقع ، يصبح الحلم امتدادا للواقع خلال الصفحات الاخيرة من الرواية .. وهو ليس أسلوبا جديدا ولكنه ما زال طريقة للتعبير في الرواية الحديثة .. والكاتب يستغل هذا الاسلوب في تسجيل ذرات الافكار المتساقطة على عقل بطل روايته ويتبع عالمه الداخلي المليء بالهواجس والاحلام المكبوتة . ان نكبة الـ ٤٨ تمتزج بنكسة الـ ٦٧ مع فارق ان في الاولى وجدنا من نعلق في عنقه أجراس الهزيمة . أما في الثانية فالاجراس الصدئة تقرع داخل أدمغتنا ووجداناتنا فيما يشبه الدوار ، لذلك ينجح الكاتب في احياء جو الكوابيس والاحلام في الرواية . ان فرحات لم يعد يميز بين الواقع والحلم ، كل شيء مختلط متداخل ، انها صدمة الهزيمة التي لا تصدق يصورها الكاتب في لحظات السقوط الدامية في نهاية الرواية عندما يتحرك جبل البخور وينهار على القرية وكأن نبوءة الجد قد تحققت .

وينتشر الخواجات ، ويملأ الرعب أهالي القرية وكأنه يوم القيامة قد حل .. وتتحول القرية الى ركام من الحجارة والآدميين .. أن النصر الاسرائيلي المدوخ قد أصاب الفكر العربي بالذهول والحيرة .. ومع ذلك لم نخسر كل شيء . قال فرحات لعوده : « هل بقي لنا شيء بعد ؟» ويرد عوده : « كل شيء . بقينا نحن ، اذن فقد بقي كل شيء » . يقول عوده وهو يتأمل مع صديقه فرحات القرية المحترقة : انها اللحظات التي لم نعشها تجمعت فكانت غزوا » . ثم يستطرد قائلا : « يا فرحات ، الا تحس انك منذ الآن بدأت تحيا ، ترى بكل عينيك ، تسمع بكل أذنيك ، تتنفس بكل خلاياك ؟ يا فرحات هذا الذي حدث كان شيئا لا بد منه ، كان صرخة استغاثة من شيخنا الكبير الذي هجرناه .. الخ » .

وأنا أختلف مع الكاتب في أن ما حدث كان بسبب هجران الشيخ الكبير ـ هذا اذا لم يكن يعني نجما بالذات .. فليس في سياق الرواية ما يقنعنا بهذه النتيجة والا صح أن يكون ما حدث بسبب هجران (نجم) الذي يمثل صخرة المعتقدات الراسخة بالنسبة الى أهل القرية .. والا بماذا نفسر لجوء فرحات وعوده الى مقام « نجم » في نهاية الرواية على اعتبار انه الملاذ الروحي الاخير أو منطلق الاصالة بعد ان تحطمت القرية وانتهى كل شيء ؟! ثم عندما يقول عوده : « شيخنا الكبير هنا .. هنا في أعماقنا ولم يغب » . هذا القول يؤدي الى الغموض والتشويش في ذهن القارىء ، فكل مقدمات الرواية عن هذه الشخصية تشير الى انه يمثل الاستغلال أو بمعنى أصح الاحتلال القابع في خلايانا النفسية والاجتماعية والسياسية ، أو بكلمة أخرى يمثل الوجه الغريب المستعار الذي احتل مكان نجم .. ان شيخ أمين شنار لا يكاد يعطي المعنى الحقيقي الذي يرمز اليه في نهاية أحداث الرواية ، ولا أجد سببا واضحا لهذا التناقض بين الرمز ومعناه . هذا مع ان الكاتب قد نجح الى ابعد حد في أن يجعل الاحداث والشخصيات تتضافر جميعا على تعميق شخصية الشيخ الكبير وتجسيم ابعاده الرمزية في ذهن القارىء دون ان يبرز على مسرح الرواية .

ان الشيخ الكبير في رواية « الكابوس » يذكرني بنجمة كاتب ياسين من حيث انه يمثل المحور الرئيسي الذي تدور حوله الاحداث والمواقف والشخصيات ، وليس معنى هذا ان كاتبنا قد تأثر برواية كاتب ياسين ، ولكنها مجرد ملاحظة من الناحية الشكلية .. وملاحظة أخرى نذكرها حول الفصلين الثامن والتاسع فيما يتعلق بالمناقشة التي تدور بين الزملاء الاربعة ، فقد كنت أريد للكاتب ان ينتشل الحوار من الصبغة الفكرية التي تصل في أكثر الاحيان الى درجة التجريد ، مما جعل هذين الفصلين ـ وهما يمثلان منعطف التحول في احداث الرواية ـ يعانيان من برود ملحوظ ، فنحن لا نهتز مع وقع الاحداث بقدر ما نقرأ متابعة الكاتب لافكار شخصياته .. ثم عندما يبدأ بعض هذه الشخصيات في التحدد واكتساب ملامح المأساة الحقيقية يختفي دون مبرر فني أو موضوعي كما حدث بالنسبة الى شخصيتي علي وعصام ، على ان هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة رواية « الكابوس » كعمل أدبي يتصبب بعرق الكاتب ، وينبض بمعاناته واخلاصه .. أن الشاعر قد اتجه الى الرواية بعد أن وجد ان التجربة الشعرية قد لا تستوعب كل هموم المرء ، ولكي يرسم لنا لوحات شعرية حافلة باللمسات والصور بأسلوب القصة ..

انني أشد على يد امين شنار ، وأتمنى أن نقرأ له أعمالا روائية أخرى لا تقل روعة عن « الكابوس » .

محمد حسيب القاضي

ثلاثة كتب للمقاومة

تأليف : عرفات حجازي

***

التوسع الاسرائيلي وحرب المواجهة العربية ، المقاومة الفلسطينية ومراحل حرب التحرير الشعبية ، حرب العصابات البلغارية وحرب التحرير الفلسطينية . هذه الكتب الثلاثة صدرت حديثا للاستاذ عرفات حجازي ، رئيس تحرير جريدة « عمان المساء » الاردنية .

وللمؤلف ، بالاضافة الى هذه الكتب ، سلسلة التوعية الفلسطينية، وتضم سبعة كتب .. وله خمسة كتب أخرى .

وسلسلة « كتب المقاومة » ستتناول بالدرس والبحث حركات المقاومة الفلسطينية والعربية والعالمية ، لنقف على حقيقة السلاح السري الذي يمكن أن تمتلكه الشعوب في نضالها للتحرر من الاحتلال الاجنبي والغزو الاستعماري .

في الكتاب الاول (التوسع الاسرائيلي وحرب المواجهة العربية) يتحدث المؤلف عن الحركة الصهيونية التي ظهرت في عام ١٨٩٧م كنتيجة حتمية للمشكلة اليهودية التي سادت اوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أن الصهيونية حركة سرية لا تكشف عن اسرارها الا في وقت محدد .. فمثلا بروتوكلات حكماء صهيون التي وضعت عام ١٨٩٧، لم تنشر الا عام ١٩٠٥ . واذا كشفت اسرار الصهاينة فان زعماءها ينكرون هذه الاسرار . وجل اطماع الصهاينة هو تكوين (دولة اسرائيل الكبرى) .

وحكومة اسرائيل تنفذ الاوامر والخطط التي رسمت منذ اكثر من سبعين عاما ، والجنود الاسرائيليون مرغمون على دخول المعركة (انهم مقيدون بتنفيذ الخطة ، تماما بمثل القيد الذي كان يربط الجندي الاسرائيلي في دبابته المحروقة المدمرة في معركة الكرامة) .

والصهيونية بمراحلها الاربع ، قد حققت ثلاث مراحل للان ، وبقيت المرحلة الاخيرة ، وعلى ضوء نتائج المرحلة الاخيرة من مراحل الصهيونية يتقرر مصير الامة العربية ، اما ان تبقى ، واما ان تزول ، ومعنى بقاء الامة العربية هو القضاء على الحركة الصهيونية واطماعها .

والاعداء يحاولون كسب المعركة ، فتبنى رجال صهيون هذه الحركة ، ومن اشهر هؤلاء الرجال (هرتسل) صاحب كتاب (الدولة الاسرائيلية) ، وكان لهرتسل نشاط كبير في سبيل تحقيق اهداف الصهيونية . وبرتوكولات حكماء صهيون هي دستور الحركة الصهيونية العالمية . ومما جاء فيها : (لا بد من الملاحظة بان عدد الاشرار في العالم يفوق كثيرا عدد الابرار فيها .. ولهذا السبب نرى الحكم الارهابي يأتي بنتائج أفضل وأفيد مما يأتي به الحكم المبني على النقاش والجدل).

واطماع الصهيونية لا تقتصر على تكوين (دولة اسرائيل) في فلسطين وحسب ، بل يتعدى ذلك الى العراق وسوريا ولبنان حتى

المدينة المنورة .

ويبين الكاتب في خمس نقاط أسباب هزيمة العرب وانتصار (اسرائيل) . وملخص هذه النقاط : ان الامة العربية وقعت تحت ضغط الاستعمار لعدة قرون ، جهل الحقيقة للمخطط الصهيوني البعيد ، تجزئة الوطن العربي ، خداع الرأي العام العالمي بالاهداف التوسعية الصهيونية ، عدم تمكن الانسان العربي من وطنيته ، كما قال أحد المفكرين (ان الانسان العربي لا يحس بانه مواطن من الدرجة الاولى في وطنه) .

ويقرر المؤلف في نهاية كتابه ، بان لا انتصار للامة العربية الا بالوحدة . وعلى ذلك انبثقت الثورة التحررية في صفوف الشعب الفلسطيني .

***

اذا كان كتاب (التوسع الاسرائيلي ..) ، يتحدث عن قبل حزيران ، ونتائج حرب حزيران ، فان الكتاب الثاني (المقاومة الفلسطينية ومراحل حرب التحرير الشعبية) ، يتحدث عن المرحلة التي جاءت بعد حرب حزيران . المرحلة التي فيها (انقلبت خرافة « الجيش الذي لا يقهر » الى حقيقة لا مجال لمناقشتها) . وانتقل الحديث عن الجرائم الفاشية الى الحديث عن المقاومة المسلحة للشعب الفلسطيني.

وهذا الكتاب حصيلة زيارة للمؤلف الى قواعد الفدائيين برفقة بعض الصحفيين الاجانب .

والاستاذ عرفات يجيب على سؤال كبير ينطبع في مخيلة الاجانب ، وهو : هل يستطيع الفدائيون الانتصار على (جيش الدفاع الاسرائيلي الذي لا يقهر) ؟ ، لان الاجانب يقولون بان لعمل المقاومة اسبابا للنجاح، كأن يتوفر للمقاومة الارض التي منها تشتعل الثورة ، وان تكون هذه الارض جبلية وعرة ، او ان تكون الارض ذات غابات وادغال .

وقبل ان يجيب الكاتب على هذا السؤال يتصدى للوجه الاخر للصورة الى قوات الاحتلال . والمطلع على اخبار الارض المحتلة ، وما يجري هناك يوقن بان الفدائيين اثبتوا وجودهم أمام (الجيش الذي لا يقهر) .

ان انتصار اسرائيل على جيوش العرب أخمد شعلة الايمان في قلوب العرب ، وأضحى الامل سرابا . الى (ان سمعت اول بلاغ يصدره الثوار الفلسطينيون من قلب الارض المحتلة ، واستمرت البلاغات تصدر وهي تعلن عن انتصارات تحققها على ـ الجيش الذي لا يقهر ـ الى ان جاءت معركة الكرامة في الحادي والعشرين من اذار عام ١٩٦٨ لتعلن عن اسوأ هزيمة تقع في الجيش الاسرائيلي) . وهذه المعركة قلبت الموازين ، وشع الامل من وراء أفق محشو بالغيوم . والتحمت القوى العسكرية على الارض العربية وخاصة بين الجيش الاردني والفدائيين .

والعمل الفدائي أخذ يحطم الثقة المتمكنة بين القاعدة والحكم في اسرائيل قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، واخذ الشك يعتري هذه الثقة في اسرائيل .

ونعود للاجابة على السؤال الذي طرح قبل قليل وهو (هل يستطيع الفدائيون الانتصار على الجيش الاسرائيلي ؟) . يقول المؤلف ان (الشعب الفلسطيني اعطانا الدليل من تاريخ ثوراته الطويل بانه لا يقل بطولة عن الفيتكونغ والجزائريين) . ان الفدائيين اعطوا الدليل بوجود عنصر التضحية و (الاقبال على الموت) ، كما وان للفدائيين الخبرة العسكرية والتدريب والعلم ، والدليل على ذلك الانتصارات الباهرة التي حققها الفدائيون في صراعهم مع الاعداء (اختطاف الطائرة البوينغ ٧٠٧ الى الجزائر ، قتل الكولونيل ريكيف الذي وصفه موشى دايان بانه في مرتبة القديسين لانه من الذين حققوا النصر في حرب حزيران ، وحادثة قتل قائد المظليين الذي كان ـ اول من رفع العلم الاسرائيلي على حائط المبكى ـ ونسف مستودعات الذخيرة في جنوب تل أبيب ، ونسف مطار اللد ، وقصة قتل روبرت كنيدي الذي صرعه أحد الفلسطينيين وهو سرحان بشارة سرحان) .

ويتعرض الاستاذ حجازي للعقبات التي تواجه العمل الفدائي ، ويرد ذلك للظروف التي مر بها الشعب الفلسطيني ، كمعاناته للتشرد والضياع ، وتعدد وتوزع العمل الفدائي حتى بلغ عدد المنظمات الفدائية ستا وثلاثين منظمة . ولكن هذا العدد انحسر الى خمس منظمات بعد عام واحد . (وما دامت حركة الفدائيين بدأت تسجل الانتصارات الصغيرة ، فلا شك ، وكما قال الجنرال جياب قائد جيش التحرير الفيتنامي ، بأن آلاف الانتصارات الصغيرة ستتحول الى الانتصار الكبير) .

***

والكتاب الثالث هو (حرب العصابات البلغارية وحرب التحرير الفلسطينية) .

لقد قام الاستاذ عرفات بزيارة رسمية لبلغاريا .. وهناك اطلع عن قرب على الصورة النضالية للشعب البلغاري حيث قرأ سطور ملحمة صمود وتضحية الشعب البلغاري على الطبيعة .

(في تاريخ الشعب البلغاري ثلاث ثورات شعبية توفرت فيها كانت في القرن الحادي عشر ضد بيزنطا ، والثانية في القرن الثامن عشر ضد الاتراك ، اما الثالثة فقد كانت في اوائل القرن العشرين ضد الفاشية).

وقد قاسى الشعب البلغاري الامرين في نضاله ضد الاحتلال ، ففي عهد الحكم البيزنطي فقئت عيون الشعب ، لانهم طالبوا بحريتهم . وفي عهد الحكم التركي خسر ما يقارب ربع الشعب اراضيهم سداد الديون والضرائب للطبقة الاقطاعية ، وفي ظل الفاشيين تأخر الشعب البلغاري عن السير في طريق الحضارة وسقط الكثيرون لتروي دماؤهم شجرة الحرية .

وفي نهاية الكتاب يعقد الاستاذ حجازي مقارنة بين حرب التحرير البلغارية وحرب التحرير الفلسطينية .

اذا كان الشعب البلغاري استطاع ان ينال الحرية ، فان الشعب الفلسطيني يتتبع الاثر وهو بانتفاضته الرائعة سيحقق النصر .

(واذا كان شعار الثورة البلغارية : من يسقط من اجل الحرية لا يموت ، فان الثورة الفلسطينية هي الاخرى قد اتخذت هذا الشعار لحركة نضالها منذ ان اعلنت الكفاح المسلح ، وهي أشد ايمانا بان من يسقط في المعركة من الحرية .. لا يموت ..) .

عمان — الياس خليل جريس

عن الرجال والبنادق

مجموعة قصص من

ادب المقاومة بقلم

غسان كنفاني

صدر حديثا — ٢٠٠ ق.ل